الخلافات الزوجية في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط
من خلال كتاب المعيار للونشريسي

Marital Conflicts in the Islamic West during the Medieval Era, through the Book of Al-Miaayar by Al-Wanchrisi

هشام الغرباوي*

وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي والبحث العلمي- المغرب

elgharb.hicham@gmail.com

تاريخ الارسال: 2020/05/14 تاريخ القبول : 2020/06/04 تاريخ النشر: 2020/12/31

ملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع الخلافات الزوجية في منطقة الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، اعتمادا على كتاب المعيار المعرب لصاحبه الونشريسي، الذي يعتبر من أهم الكتب النوازلية لأي دارس في التاريخ الاجتماعي، وتحاول الدراسة الكشف عن أسباب الخلافات الزوجية التي تجلت مظاهرها فيما هو مادي، والخيانة الزوجية وتعدد الزوجات، إضافة إلى رصد النتائج المختلفة لهذه الخلافات، كان آخرها الطلاق كحل لوضع نهاية لمشاكل الزووجين.

الكلمات المفتاحية:

الخلافات الزوجية –الونشريسي – النوازل – الغرب الاسلامي

* المؤلف المراسل

Abstract:
This study tackles the topic of marital conflicts in the Islamic West region during the middle age. The study depends on Alonchirissi's book "the Arabic criterion" which is considered one of the most important books of Hypocrisy for any researcher in social history. The study is intended to diagnose the causes behind marital conflicts. The results revealed that most conflicts are due to financial problems, polygamy and cheating. This results in divorce as a solution to problems between husbands and wives.

key words: marital conflicts – Alonchirissi – Legal cases - Islamic West

مقدّمة:

مما لا شك فيه أن البحث في موضوع الأسرة في حقل الدراسات التاريخية لا يزال في مراحله الجنينية، خاصة إذا تعلق الأمر بمنطقة الغرب الإسلامي وبالأخص فترة العصر الوسيط، حيث أن دراسة تاريخ الأسرة أضحى من المواضيع التي فتحت نقاشا واسعا بين الباحثين خصوصا عند الذين اقتنعوا بأن كتابة تاريخ مكتمل نوعا ما، يقتضي الانفتاح على مواضيع اعتبرت من الأمور الخاصة. وإذا كان أحد الباحثين قد اعتبر أن اختزال حركة التاريخ في تاريخ سلطاني أو نخبوي، والسكوت عن الفئات الاجتماعية الأخرى، لا يعدو أن يكون تاريخا مبتورا يعبر عن سطحية الحدث التاريخي بدل عمقه[1]، فإن الأمر ينطبق حتى على نوعية المواضيع، حيث أن المتتبع لتاريخ الغرب الإسلامي يلاحظ أن المصادر التقليدية ركزت أساسا في مادتها على الإنجازات التي حققها السلاطين ونخبة المجتمع.

وإذا كان البحث في تاريخ الأسرة لا زال يكتنفه الغموض، فإن سحب هذا الغموض تزداد إذا تعلق الأمر بالحياة اليومية للأسرة لاسيما موضوع العلاقات الزوجية، الذي يعتبر من المواضيع التي لم تأخذ حقها من الدراسة والتقصي والبحث المفصل، فمثل هذه المواضيع كانت خارج اهتمامات مؤرخي العصور الوسطى، حيث أُدرجت ضمن المسائل العائلية الخاصة، ونادرا ما يجد الباحث في المصادر التقليدية إشارات حول

موضوع العلاقات الزوجية، وبالتالي عليه جمع شتات ما تختزنه هذه المصادر للوصول إلى نتيجة متواضعة، ولهذا أصبح من الضروري على الباحث في القضايا الاجتماعية الدقيقة في العصر الوسيط تجاوز ما ورد في هذه المصادر والانفتاح على المصادر الدفينة مثل كتب النوازل والفتاوى وكتب الطبقات والتراجم والحسبة وغيرها، من أجل تكوين نظرة عامة حول الحياة اليومية بكل تفاصيلها وتلويناتها.

واعتمادا على ما تحتويه المصادر الدفينة من مادة علمية، وخاصة النوازل الفقهية، يمكن رسم الملامح العامة حول العلاقات الزوجية وذلك من خلال رصد مظاهرها ونوعيتها، وذلك من أجل نفض الغبار حول هذا الموضوع. وقد لا يختلف اثنان على أهمية النوازل الفقهية، على اعتبار أنها تساعد الباحث في التعرف على أحوال المجتمع انطلاقا من الأسئلة التي تطرح حول مناحي الحياة بكل تفاصيلها، الأمر الذي يمكن الباحث من الاستفادة من مادتها من أجل تبيان ما لم تتطرق إليه المصادر التاريخية التقليدية، خصوصا وأن كتب النوازل ساهمت بشكل كبير في الكشف عن عديد الظواهر الاجتماعية التي عرفتها المجتمعات الإسلامية.

الإشكال

إن الاهتمام بقضايا المجتمع في الغرب الإسلامي، خاصة الجوانب المتعلقة بالأسرة، دفعنا إلى التساؤل عن طبيعة العلاقة التي جمعت بين أفرادها، وعلى نحو خاص بين الزوجين. ومن خلال هذا التساؤل تم تأطير مقالنا بإشكال عام وهو الخلافات الزوجية في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط.

واعتمادا على ذلك يمكن طرح التساؤلات التالية:

- ما طبيعة الخلافات الزوجية في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط؟
- ما انعكاسات هذه الخلافات على العلاقات الزوجية؟

الفرضيات

تفرعت عن إشكال المقال فرضيات جزئية على الشكل التالي:

- تعددت أسباب الخلافات الزوجية حيث اختلفت شدتها.
- كانت للخلافات الزوجية انعكاسات على استقرار الأسرة وعلى العلاقات الزوجية.

المنهج المعتمد

انطلاقا من قناعات واختيارات منهجية للموضوع، واعتمادنا على كتب النوازل الفقهية، تم اختيار منهجية تمزج بين الوصف والتحليل، من خلال الوقوف على النصوص التي أشارت إلى الخلافات الزوجية، ومن ثم القيام بتفكيكها من أجل تلمس واقع هذه الخلافات.

الأهداف

- معرفة نوعية الخلافات الزوجية في الغرب الإسلامي اعتمادا على نوع من المصادر الدفينة المتمثل في كتب النوازل الفقهية خاصة نوازل الونشريسي.
- استنباط العوامل التي سببت في نشوب الخلافات بين الزوجين وتأثيرها على علاقتهما.

المبحث الأول: أهمية كتب النوازل في الدراسات الاجتماعية

أجمع الباحثون حول أهمية كتب النوازل الفقهية في الدراسات الخاصة بالمجتمع وحياة الناس اليومية، فبالرغم من اهتمام كتب النوازل بالجوانب الفقهية، فهي تعبر عن الانشغالات الحقيقية والملموسة التي عاشها الانسان في بيئته. وقد استطاعت النوازل الإحاطة بمختلف مجريات الحياة الإسلامية اليومية، واخترقت عالم السياسة والمرأة والعادات الاجتماعية...، ومن تم تكون كتب النوازل منجما غنيا بمعلومات موازية يستفيد منها المؤرخ والاجتماعي وغيرهما[2]، وهو الأمر الذي يؤكده الباحث ابراهيم القادري بوتشيش حيث اعتبر أن تدارك النقص الحاصل في الدراسات التاريخية لا يمكن تجاوزه إلا بالرجوع إلى كتب المناقب والتصوف والنوازل الفقهية[3].

إن اهتمام المؤرخين بكتب النوازل، جاء في سياق اهتمامهم بتجديد الكتابة التاريخية، خصوصا وأن هذا النوع من المصادر غني بالمعطيات التاريخية[4]، إضافة إلى أنها لم تصدر من سلطة رسمية، ولم تتلون بلون ايديولوجي أو سياسي، الأمر الذي يجعلها مصادر تاريخية محايدة تفوق أحيانا النص التاريخي[5].

ونظرا لما للنوازل من أهمية في كتابة التاريخ الاجتماعي، ارتأينا اعتماد كتاب المعيار المعرب للونشريسي (ت 914هـ) مادة مصدرية لاستخراج منه ما يتعلق بالخلافات الزوجية في منطقة الغرب الإسلامي، وذلك لاعتباره أبرز الكتب النوازلية في المنطقة المدروسة، فهو عبارة عن مؤلف جامع للعديد من الأسئلة والأجوبة الفقهية المرتبطة بحياة الناس اليومية وانشغالاتهم، وهو ما وفر معلومات تاريخية همت جوانب مختلفة.

المبحث الثاني: الخلافات الزوجية من خلال كتاب المعيار

تتباين درجة الخلافات الزوجية من حيث شدتها، إذ يمكن أن نميز بين خلافات بسيطة لا تؤثر على الحياة الزوجية، وخلافات تكون نتيجتها هدم بيت الزوجية ووضع حد للعلاقة بين الزوجين، ويتبن من خلال النصوص أن عوامل عدة تحكمت في النزاعات الزوجية التي انتشرت في أوساط العامة أكثر من الخاصة.

لقد تحكمت العوامل الاقتصادية في حدوث النزاعات الزوجية خاصة في أوساط العامة، وساهمت سلبا في استقرار أحوال الأسرة، وعلى ظروف المودة والانسجام بين أفرادها، وقد كشفت لنا مجموعة من النوازل عن نوعية هذه المشاكل حول خلاف وقع بين رجل وزوجته لأنها طالبته بشراء ثياب لها و"أكثرت عليه في ذلك واستعظم ما سألته[6]"، ونجد في نازلة أخرى أن امرأة اشتكت من قلة النفقة من طرف زوجها حيث وصل الأمر إلى ضربها[7].

وانبثق عن العامل الاقتصادي عامل آخر ساهم بدوره في خلق جو من التوتر بين الزوجين، ويتجلى في رغبة الزوج في الهجرة من مكانه إلى آخر، الأمر الذي رفضته

الزوجة، وقد عبرت عن ذلك عدد من النوازل، حيث سئل القابسي عن خلاف دب بين رجل وزوجته، لأنه أراد الخروج بها من سوسة إلى القيروان[8]، كما سئل الفقيه المازري عن نزاع احتدم بين زوجين وصل إلى حد الطلاق، لأن الزوج نقل زوجته من بلدها تونس وخرج بها إلى القيروان[9].

ومخافة الوقوع في خلاف كان بعض الأزواج يشترطون في عقود الزواج ألا تمتنع الزوجة من السفر أو الانتقال، وهو ما تعبر عنه إحدى النوازل حيث سئل فيها ابن أبي زيد القيرواني عن رجل اشترط في عقد النكاح ألا تمتنع الزوجة من الخروج معه "من المهدية إلى قفصة"[10].

وفي إطار النزاعات الزوجية المادية، كان الصداق سببا في ذلك، حيث وقعت حوله نزاعات عديدة لأسباب مختلفة، ونصوص النوازل أشارت إلى ذلك، فقد عرضت على الفقيه المازري نازلة تتعلق بخلاف دب بين رجل وزوجته لأنها طالبته بمؤخر صداقها[11]، كما سئل عن امرأة أصرت أن يسارع زوجها ببيع متاع له ليوفي لها مؤخر صداقها غير عابئة بما تحدث سرعة البيع من مضرة في الثمن[12]، وتشير نازلة أخرى إلى أن زوجا قدّم لزوجته صداقا عينيا يشمل كسوة وحليا، غير أن الزوجة بعد مرور السنوات طالبت زوجها بصداقها، وأن الذي اعتبره الزوج صداقا اعتبرته الزوجة هبة[13].

وضمانا لعدم التزام الزوج بصداق زوجته، عمدت هذه الأخيرة إلى أخذ بعض أمتعة الزوج، وقد عبرت إحدى النوازل عن ذلك، حيث تشاجرت الزوجة مع زوجها، "فخرجت عن الدار وخرّجت متاعها في ذلك اليوم[14].

تظهر نصوص أخرى أن اعتداء الزوج على أملاك زوجته، كانت من الأسباب التي ساهمت في حدوث خلافات بينهما، ولهذا فالزوجة كانت حريصة على حماية ممتلكاتها باشتراطها في عقد النكاح ألا يمس الزوج أموالها إلا برضاها، وإلا صار أمرها بيدها[15]. وبالرغم من ذلك فقد بينت بعض النوازل خرق الزوج لهذا الشرط، وذلك بدون علم الزوجة[16]، لكن عندما يصل ذلك إلى علمها تدخل الزوجة معه في مشاحنات[17]، وتشير

نوازل أخرى إلى "رجل كان يعمّر فدان زوجته فوقع بينهما كلام"[18]، و"رجل تضارب مع زوجته على أملاك لها"[19].

وكانت لظروف السكن كذلك سببا في وجود توتر بين الزوجين، خاصة طبقة عامة الناس، حيث كانت الزوجة تتطلع إلى مسكن لائق ومستقل عن أسرة الزوج أو عن باقي زوجاته، حيث تشير إحدى النوازل أن رجلا عجز عن دفع كراء دار مستقلة كانت تجمعه بزوجته وانتقل بها إلى دار أمه، إلا أن الزوجة لم تعجبها سكناها وطلبت الرجوع، فامتنع[20]. وفي نازلة أخرى عرضت على الفقيه المازري حول نزاع دب بين رجل وزوجته لأنها رفضت أن "تسكن مع أبويه وزوجته في الدار التي هما بها"[21].

اعتبرت ظاهرة تعدد الزوجات واتخاذ الجواري، من العوامل التي ساهمت في توتر العلاقات الزوجية، سواء بالنسبة للأغنياء والوجهاء، أو المستضعفين من عامة الناس، وبالرغم من اشتراط الزوجة في عقد النكاح بألا يتزوج من غيرها إلا بإذنها، وإلا صار لها الحق في تطليق الداخلة عليها، أو يصبح أمرها بيدها بطلقة واحدة تملك بها نفسها[22]، فإن ذلك لم يحل دون قيام الزوج بالتعدد، وهكذا ترد مجموعة من النوازل في هذا الصدد، حيث تفصح إحدى النوازل أن امرأة عانت من إهمال زوجها بسبب زواجه بثانية بالرغم من كبر سنه وفقدان بصره[23].

كما رفضت الزوجة أن يتسرى زوجها بجارية من الجواري، حيث تشير إحدى النوازل أن رجلا "اشترى مملوكة أدخلها داره، فلما رأتها زوجه قالت له أنا لا أبقى مع هذه بدار واحدة ولا في عصمتك[24]. وتعتبر نازلة أخرى أن شجارا دب بين زوج وزوجته لأنه أمر مملوكة لها أن تناوله وهو في المرحاض ما يغتسل به، فقالت سيدتها هي حرة أن ناولتك الماء، وقال الزوج أنت طالق إن لم تناولني الماء[25].

ومن المشكلات التي ساهمت في زعزعة استقرار الأسرة، مشكلة غياب الزوج عن أسرته، وهو ما تشير إليه عدة نوازل، فقد رفع إلى الفقيه المازري أمر "امرأة غاب عنها زوجها وأثبتت النفقة عليه ونودي على بيع زوجه في النفقة[26]، وسئل أيضا عن امرأة

غاب عنها زوجها بعد دخولها بها، فعمدت إلى حوائج البيت فباعتها، وأنفقته، ثم طلبت الطلاق[27]، كما سئل عمن " قامت النفقة في غيبة زوجها"[28]، وتبين نازلة أخرى أيضا أن زوجة طلبت الطلاق بسبب غياب زوجها لمدة طويلة[29].

وتندرج ضمن عوامل الخلافات الزوجية، المشكلات الجنسية، التي ساهمت في حدوث حرمان جنسي لدى الزوجة، جراء ارتباط الرجل بأكثر من زوجة، وإمعانه في إشباع رغباته الجنسية عن طريق التسري[30]، وغيابه عن البيت فترات طويلة[31]. كما شكت زوجة زوجها للقاضي لأنه "يطيل الجماع"[32].

وارتباطا بالمشاكل الجنسية، جعل العديد من الأزواج يسقطون في مسألة الخيانة الزوجية، التي خلخلت استقرار الحياة الزوجية، حيث تشير بعض النوازل إلى ذلك، من قبيل إنكار زوج حمل زوجته والمولود الناتج عنه من اتصال جنسي بينهما[33]، وتشير نازلة أخرى إلى أن رجلا "رأى زوجته تزني بزعمه فقام إذ رآها يريد ملاعنتها"[34]

خاتمة:

في المحصلة، يتبين أن الخلافات الزوجية في الغرب الإسلامي تميزت بالتوتر والنفور، وأن الرجل كان له دور في ظهور هذه المشاكل مقارنة بالمرأة، الأمر الذي يكشف عن وضعية غير متكافئة بين الرجل والمرأة، وهو ما يؤكد الطابع الذكوري لمجتمع الغرب الإسلامي، كما أن كشف أسباب هذه الخلافات لا يمكن فصلها عن الظروف العامة للمجتمع.

إن الاعتماد على المصادر الدفينة، ومنها النوازل الفقهية، من شأنه أن يفتح للمؤرخ الباب للبحث في مواضيع اجتماعية مختلفة، وعلاقة بموضوع الدراسة، يمكن الانفتاح على نتائج هذه الخلافات على الأبناء، التي لا شك أنها أثرت عليهم، وخلفت أبناء يعانون من مجموعة من المشاكل والاضطرابات.

الهوامش:

1- ابراهيم القادري بوتشيش، المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014، ص 15.

2- محمد زنيبر، النوازل السياسية في المغرب الحديث، ضمن كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1995، ص 127.

3- ابراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، منشورات الجمعية المغربية الأندلسية، طبعة 2، 2004، ص 5.

4- جاك لوغوف، التاريخ الجديد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص 84.

5- أحمد السعيدي، النوازل الفقهية ورفدها للعلوم الإنسانية علم التاريخ مثالا، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 28، 2016، ص 96.

6- أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهم افريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ج 3، ص 274.

7- نفسه، ج 3، ص 131

8- نفسه، ج 3، ص 159

9- نفسه، ج 3، ص 321

10- نفسه، ج 2، ص 129

11- نفسه، ج 3، ص 307

12- نفسه، ج 10، ص 405

13- نفسه، ج 3، ص 129

14- نفسه، ج 4، ص 257

15- نفسه، ج 3، ص 48

16- نفسه، ج 9، ص 630

17- نفسه، ج 9، ص 624

18- نفسه، ج 4، ص 235

19- نفسه، ج 4، ص 235

20- نفسه، ج 3 ، ص 135

21- نفسه، ج 3، ص 303
22- نفسه، ج 4، ص ص 97-98-418
23- نفسه، ج 3، ص 99
24- نفسه، ج 5، ص 275
25- ج 9، ص 237
26- نفسه، ج 10 ص 406
27- ج 3، ص 295-306
28- نفسه، ج 3، ص 41
29- نفسه، ج 3، ص ص 112 - 202
30- نفسه، ج 3، ص 99-100-184-267
31- نفسه، ج 1، ص 261
32- نفسه، ج 3، ص 235
33- نفسه، ج 4، ص 71 -72- 73
34- نفسه، ج 4، ص70